دراسات أدبية

موقف النقـــــاد من الشعر الجاهلي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

بقية ما نشر في العدد الماضي

وفي القرن الثالث أيضاً كثرت مؤلفات النقاد في الشعر والشعراء ؛ وكتاب ابن سلام « طبقات الشعر » مشهور وهو أول عمل أدبي منظم في النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، ووضع في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ؛ ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفني للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذي قسم الجاهليين ثلاث طبقات ووضع في الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وفي الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً. ويذكر ابن سلام في طبقاته الشعراء الإسلاميين ويقسمهم طبقات عشراً أيضاً ولا يذكر أحداً من الشعراء المحدثين ؛ بعكس ابن قتيبة الذي ألف كتابه « الشعر والشعراء » وذكر فيه الكثير من الشعراء المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث ؛ وهذا يدل على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديراً للشعر الجيد وحده بصرف النظر عن قائله وزمنه . وهذا يذكرنا بجمع المفضل وأبي زيد الأنصاري للشعر العربي ؛ فقد جمع المفضل في كتابه مختارات للشعراء الجاهليين وقليل جداً من الشعراء المخضرمين . أما أبو زيد الأنصاري ففي كتابه الجمهرة مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين . ثم ألف ابن المعتز أيضاً كتاباً في طبقات الشعراء المحدثين طبع أوربا ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشاعر وحياته ومذهبه الفني في شعره ونماذج من مختارات شعره ، وأول ترجمة له في الكتاب هي ترجمة بشار م ١٦٧ هـ ، وأقصى شاعر ترجم له ابن المعتز هو الناشئ م ٢٩٣ هـ ومحمد الشيرازي الذي يقول فيه المؤلف : وهو اليوم شاعر زماننا ، وجميع التراجم التي يحتوي عليها الكتاب والتي تبلغ أكثر من ١٣٠ ترجمة هي لشعراء عاشوا بين هذين التاريخين ؛ وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار وطبقة أبي نواس وطبقة أبي تمام والبحتري

٧ — والقرن الرابع الهجري كان أحفل قرن بالنقد والنقاد ، وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبي مثل : نقد الشعر لقدامة م ٣٢٧ هـ ، وأخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمدي م ٣٧١ هـ ، وإعجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٥ هـ ، والوساطة للجرجاني م ٣٩٢ هـ ؛ كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٥٦ صاحب العمدة ، وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة ، وكتاب الأسرار والدلائل لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ

وكان النقاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ ، فلم يتعصبوا للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، ولم يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكموا الذوق وحده في كل شيء ؛ حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الآمدي والجرجاني وابن رشيق وسواهم . قال الآمدي في كتابه الموازنة [1] : « وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب » ؛ وقال صاحب الوساطة في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات لا يمكن عائب القدح فيه إما في لفظه ونظمه أو ترتيبه وتقسيمه أو معناه ، أو إعرابه ، ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ومردودة منفية ؛ لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام [2] » ، ولو [3] تصفحت

---

(١) ١٨ الموازنة ط بيروت (٢) ص ٣ و ٤ وساطة ط صبيح
(٣) ص ٧ الوساطة

تصفحت ما تكلفه المحدثون لهم من الاحتجاج ، وتبينت ما راموه في ذلك من الرامي البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التي يشهد القلب أن المحرك لها والباعث عليها شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس » ؛ وأزرى الآمدي والجرجاني بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين[1] كالأصمعي الذي أنشده إسحاق الموصلي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدني ؟ فقال : لبعض الأعراب ، فقال : هذا والله هو الديباج الخسرواني ، فقال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فقال الأصمعي : لا جرم والله أن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ! وكابن الأعرابي الذي[2] أنشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه فلما علم أنه لأبي نواس أنكره

وعد الباقلاني في إعجاز القرآن قصيدة امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

نقداً طويلاً ، وهو أول نقد أدبي مفصل لقصيدة من الشعر العربي

٨ — وفي العصور الوسطى ضعفت الملكات وعقمت الأذواق وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم فعمه ، فكانوا يحيطون الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ولا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين ولا أجاد إجادتهم ، ورأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث

٩ — وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الإعجاب والتقدير البعيد للشعر الجاهلي ، وهب جماعة من أولي الثقافات الأوربية يطعنون على الشعر الجاهلي ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه منتحل مختلق . ومن الحق أن بعض نقد هؤلاء كان عادلاً منصفاً ، وأما الكثير منه فكان مغالى فيه

عاب النقاد على الشعر الجاهلي أنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به في النظم لأنه في الغالب أبيات مبعثرة تجمعها قافية واحدة يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ثم يخرج منه على غير وتيرة مرونة ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك وضعف الصياغة كثيراً من العيوب العروضية والتكرير السامج والاقتصار المكروه والتجوز المعيب الذي يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فناً مستقلاً بصناعه المعروفين به ، وإنما كان ضرباً من الكلام يقوله كل قائل ويروى المحكم منه وغير المحكم على السواء[1] ، فنراه يعيبه بما يلي

١ — ضعف وحدة القصيدة ، ونحن في الرد على هذه الفكرة نكتفي بمقالين المتكلمين : قال ولكه المستشرق الهولندي المشهور « وفي أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلي بوحدة الفكرة في قصيدته بأن يجعل كل قسم من أقسامها خاصاً بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه أو الحياة الدائمة التي يحياها البدوي في الصحراء » وقال جميل صدقي الزهاوي الشاعر المجدد : « وهناك شيء يستحسنه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربي ، هو وجوب أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصف شيء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان في وصف منزل من الأول ، وهذا ليس من الشعر في أصله ، بل هو تابع للأذواق ولطريقة الشاعر في شعره ، ولا يتورع الشاعر العربي في العربية الموضوع في كل قصيدة ، فكثيراً ما يحصر شعره في القصيدة الواحدة في موضوع واحد ، وإذا نوع الموضوع فهو يخرج إلى الثاني بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريداً بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة ، وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافي ما يفعله شعراء الغرب ، ولكل أمة سياق وتزمة تبعث لأخلها ، وأعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا على الإطلاق لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء لما خرجوا كثيراً عن النهج الذي يمشي عليه المبرزون من هؤلاء ، والسبب هو ما نعمله من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين ، من جهة وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى ، وقد هم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية بتقليد الغرب في شعره ، فلم يكن ما أتوا به غربياً ولا شرقياً ، ولم يوفقوا

(١) ١٠ : الموازنة ٥٠ ، والوساطة (٢) ٢٨٩ — ١ زهر الآداب

(١) مراجعات العقاد .

(٢) من مقال له نشر بالسياسة الأسبوعية عام ١٩٢٧ .

[illegible] الشعور هي مشتركة بين الأمم جميعها ، ومهما تجرد [illegible] من الأساليب والتصورات في أمته فهو لا يستطيع [illegible] تصورات وأساليب تخالف ما ألفته شعبه [illegible] التربة التي تربط الحاضر بالماضي .

٢ — ويعيب العقاد الشعر الجاهلي ثانيا بأنه لم يكن فنا استقل به صناعه المعبرون به ، وذلك لا يتسق مع الحقيقة والواقع ، فشعراء الطبقات ومذاهبهم الفنية في الشعر معروفة . ويقول الدكتور طه حسين بك في كتابه الأدب الجاهلي (١) : وأما مضر فكان لها في الجاهلية شعراء يتخذون الشعر فنا يعنون به نهضة فنية عظيمة في هذا الإقليم من جزيرة العرب .

٣ — ويعيبه ثالثا بجهالة صياغته وما فيه من عيوب عروضية وتكرير ساذج وتجوز معيب . وفي هذا مغالاة .

وكانت ثورة النقد الكبرى بين الدكتور طه حسين بك وبعض النقاد والباحثين حول الشعر الجاهلي ذات صدى بعيد في دراسات الشعر الجاهلي . ويؤيد الدكتور هذا الانتحال بأدلة كثيرة : فضلا عن أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نظرا لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية الفصحى مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام مما يدل على انتحال هذا الشعر على هؤلاء القحطانيين ، فوق أن الشعر الجاهلي لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية التي لا شك فيه .

ويبنى الدكتور على انتحال الشعر الجاهلي رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش وهجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ، ثانيا وشعر الطبقة الأولى كلهم مضريون ، ويرى أنه ليس لليمن في الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان وكانت تسكن في الشمال فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين لأنها لم تكن تتكلم لغة قريش . وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا . ثم درس بعض أعلام الشعراء الجاهليين على ضوء نظريته في انتحال الشعر ، ووضع مقاييس لتمييز المنحول من الشعر الجاهلي ، وجعل الشعر أصلا في مضر ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالجزائر ، وبذلك يعكس نظرية انتقال الشعر الجاهلي في القبائل ، وهي نظرية معروفة ذهب إليها علماء الأدب المتقدمون .

وهذه الآراء والتعليق عليها موضوع بحث آخر ودراسة جديدة إن شاء الله . وقد ذكرت في كتابي « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » كثيرا من المناقشة الأدبية للفكرة نفسها بتفصيل .

وسيلي هذا البحث بحث آخر مكمل له عنوانه « دفاع عن الشعر الجاهلي » نرجو أن يكون فيه مزيد من الشرح والتحليل والنقد لموقف العقاد في الشعر الجاهلي ، والله الموفق .

محمد عبد المنعم خفاجي

مدرس في كلية اللغة العربية

(١) ص ٢١ وما بعدها